البحث عن مفاتيح عصرنا

٢ هذا هو المفتاح الضائع

د. حسين مؤنس

الهلال

وفى عالم الأفراد قد يخدم بعضهم بعضا على أساس الخير أو تبادل المنافع . وأما فى عالم الأمم فالقاعدة الأساسية هى الأنانية الصرفة . ولم نسمع فى التاريخ أن أمة خدمت أمة أو أن أمة أخذت بيد أمة . وحتى معاهدات الصداقة لا تتم . إلا على أساس سيادة واحدة منها على الأخرى . لابد أن تجد واحدة منها كاسبة والأخرى خارجة . والأساس فى عالم الشعوب والدول هو أنها لا تنهض أو تقوى إلا بعمل أبنائها وحدهم . لأنه يبدو أن أمة من الأمم لا تنهض إلا على حساب الأخريات . وهذا قانون من قوانين الوجود .

فى عصر مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥) وهو عصر التمهيد للثورة الفرنسية استحوذت على أذهان أهل الفكر فكرة القول بأن التاريخ وحياة البشر وكل ما فى الكون يجرى وفق قوانين محكمة شبيهة بقوانين الرياضيات . وأن مهمة أهل الفكر والعلم هى الكشف عن هذه القوانين لكى يكون فى الاستطاع وضع نظام للحياة على ظهر الأرض . ومونتسكيو صاحب الكتاب الذى قبسنا منه العبارة التى جعلناها مدخلا لهذا المقال له كتاب آخر مشهور يسمى « روح القوانين » وهو ليس كتابا قانونيا كما يحسب الذين يعرفون هذا الرجل بنظرية فصل السلطات . إنما هو كتاب فلسفة وبحث عن النواميس أو القوانين التى تحكم حركة الكون وحياة الناس .

وفى تأملاته فى تاريخ الرومان يقول مونتسكيو إنه وجد بالاستقراء أن أعظم الأفكار وأبعدها أثرا فى حياة البشر هى أبسطها وأوضحها ولكن الإنسان بطبعه لا يحب الوضوح لأنه يحول عينه بالتعقيد ويضرب لذلك مثلا بتعقيد رجال الدين لمسائل الأديان وتعقيد رجال العلم فى العصور الوسطى لمسائل العلم إيهاما للناس . وهو هنا يتفق مع حديه الذى يقول على لسان العالم العجوز فى رواية فاوست : إنما يتأكل علينا أمر وضعها له معلمونا لا نبدأ طويلا حتى يظهر به الناس هنا .

قبل هذا بعصر بعد أوروبا والغرب كله . لكى نتعرف على البحث عن مفتاح الضائع وهو مفتاح حضارتهم . يصورون لنا موضوعات التكنولوجيا على أنها أخطر عبرة على الفهم . وهى كما أثبت اليابانيون أيسر بكثير مما يصورون .

والتكنولوجيا - ببساطة - هى علم إتقان الأشياء . فإن الاسم مركب من لفظى « تكنوس » بمعنى الإتقان . والعرب القدماء يعرفونه على « فن » وقولهم « معناه العمل » ولكن أضفنا نستعمل لفظة التقنية كثيرا .

وبدلا من أن نأخذ التكنولوجيا على أنها علم الإتقان . ونطبقها فى كل شىء بأن نجعله يتقان نجمع كلمة نسميها كلمة التكنولوجيا كأنها علم قائم بذاته ولا صلة له بصناعة الساعات مثلا . ويدخل الطلاب فى هذه الكلية تعظيم القلا من الكتب ليحفظوها وهذه الكتب بالذات هى التى ستصفهم ولا تأذن لهم فى فهم التكنولوجيا أبدا .

ولكى أوضح لك ذلك أنبئك حكايتا حكاها رجل يسمى رياض هارت قرأت له كتابا جميلا جدا عن الأديان فى اليابان .

فى حديث لرياض هارت مع رجل من أرائل من نقلوا أسرار الصناعة الأوربية إلى اليابان يسمى تاكيو أوساهيرا قال له هذا الأخير

لو أتى البحث نصائح استاذى الألمانى الذى ذهبت لأدرس عليه فى جامعة هايدبرج ما وصلت إلى شىء . كانت حكومتى قد أرسلتنى لأدرس أصول الميكانيكا العلمية . كنت أحلم بأن أعلم كيف أصنع محركا صغيرا كنت أعرف أن لكل صناعة وحدة أساسية أو ما يسمى موديول . وهو أساس الصناعة كلها . فإذا عرفت كيف تصنعه وضعت يدك على سر هذه الصناعة كلها

وبدلا من أن يأخذنى الاستاذ إلى معمل أو مركز تجريب عملى أخذنا يحفرنى كتبا لأقرأها . وقرأت وقرأت حتى عرفت كل نظريات الميكانيكا ولكنى ظللت أقف أمام المحرك - أيا كانت قوته - وكأنى أقف أمام لغز لا حل

وفى ذات يوم قرأت عن معرض محركات إيطالية الصنع . كان ذلك أول الشهر وكان معى راتبى . وحدت فى المعرض محركا قوة حصانين أخذ يعمل أمام راتبى كله . فاحترمت الراتب ودققت وحملت المحرك كان ثقيلا جدا - وذهبت إلى مخزن . ووضعته على الطبلية وجعلت أنظر إليه كأنى أنظر إلى تاج من الجواهر . وقلت لنفسى : هذا هو سر قوة أوروبا . لو استطعت أن أصنع محركا كهذا لغيرت الحاد تاريخ اليابان

وهتف بى جواهر يقول : إن هذا المحرك يتألف من قطع ذات أشكال وطبائع شتى : فلماذا لا تدرس دائرة دائرة ومجالات وتروس وما إلى ذلك . لو أنى استطعت أن أفكك قطع هذا المحرك وأعيد تركيبها بنفس الطريقة التى ركبوها بها . لم تعد هناك أسرار قد حظرت حظوة على سر موديول الصناعة الأوروبية

وجلست فى وقوف الكتب التى عندى حتى عارت على الرسوم الخاصة بالمحركات . وأخذت ورقا كثيرا وأنبت بصناديق أدوات العمل . ومضيت أعمل . رجعت منظر المحرك بعد أن رفعت الغطاء الذى يحمى أجزاءه . ثم بعملت أفككه قطعة قطعة . وكلما فككت قطعة رسمتها على الورق بعناية ودقة . وأعطيتها رقما . شيئا فشيئا فككته كله ثم أعدت تركيب . وشغلنى الاشغل . كاد ينهى بنا من الفرح . استغرقت العملية ثلاثة أيام . كنت آكل فى اليوم وجبة واحدة ولا أنيب من النوم إلا ما يمكننى من مواصلة العمل

وحدثت أنا إلى رئيس بعثنا فقال . حسنا ما فعلت . الآن لابد أن أحضر مكانيك يحرك المعطل . وعليك أن تمسكه وتكشف موضع الخطأ وتصححه . وبعمل هذا المحرك العاطل بعمل

وكفتنى هذه العملية عشرة أيام . عرفت أبعادها مواضع الخلل . فقد كانت ثلاث من قطع المحرك بالية متآكلة . صنعت غيرها يدوى صنعتها بالمطرقة والمبرد . إنى بوذى على مذهب « زن » . وهذه هذا يقدس العمل . فأنت تجد إذ تعمل . وما تعمله بعد ذلك من شىء نافع بالطريقة من يوما

بعد ذلك قال رئيس البعثة . وكان تمثابة الكاهن يتولى قيادتى روحيا . قال : عليك الآن أن تصنع القطع بنفسك ثم تركبها محركا . ولكى أستطيع أن أعمل ذلك التحقت بمصانع صهر الحديد وصهر النحاس والألومنيوم . بدلا من أن أعد رسالة دكتوراه كما أراد منى أساتذتى الألمان تحولت إلى عامل أقيس بدلة ورقائه وأقف صاغرا إلى جانب عامل صهر معادن . كنت أطيع أوامره كأنه سيد عظيم حتى كنت أحمده وقت الأكل مع أنى من أسرة سامورای . ولكنى كنت أحدم اليابان وفى سبيل اليابان يهون كل شىء

قضيت فى هذه المصانع والمعامل والتعزيبات ثمانى سنوات كنت أعمل خلالها ما بين عشرة وخمس عشرة ساعة فى اليوم . بعد النهاء يوم العمل كنت أعد نوبة حراسة . وخلال الليل كنت أراجع قواعد كل صناعة على الطبيعة

وعلم الميكادو بأمرى . فأرسل لى من ماله الخاص خمسة آلاف جنيه انكليزى ذهبى اشتريت بها أدوات مصنع محركات كاملة وأدوات وآلات . وعندما أرسلت شحنا إلى اليابان كانت النقود قد قرت قرضت راتبى وكل ما ادخرته . وعندما رجعت إلى طوكيو قيل لى إن الميكادو يريد أن يراك . قلت إن استحال مقابلته إلا بعد أن أنتهى من تصنيع محركات كاملة

استغرق ذلك تسع سنوات . وكل يوم من الأيام حملت مع مساعدى عشرة محركات صنعت فى اليابان قطعة قطعة وحملناها إلى القصر . ووضعناها فى قاعة خاصة بنوها لنا قريبا من وأدرناها . ودخل الميكادو . واكتفينا نحيه . وابتسم وقال . هذه أعجب ترسيل تحملها فى حياتى . صنعت محركات يابانية خالصة

هكذا ملكنا الموديول وهو سر قوة الغرب . انتقلنا إلى اليابان نقلنا قوة أوربا إلى اليابان ونقلنا اليابان إلى الغرب ثم ذهبنا وصليبا فى الغرب . وبعد ذلك عشت عشر ساعات كاملة الأول مرة فى حياتى من خمس عشرة سنة .

هؤلاء الناس قد وجدوا المفتاح الضائع . المفتاح الذى نبحث نحن عنه . ولا نتصور أن مكان هذا المفتاح كان خافيا عنا . كان أمامنا قبل أن يكتشفه اليابان . وقرأ كتاب « مفاتيح الأبواب المغلقة فى مفاتيح الأقفال العصرية » لرفاعة رافع الطهطاوى نجد كلاما شبيها بالكلام الذى نقله رياض هارت عن تاكيو أوساهيرا . فهو يحدثك عن الحضارة الغربية وأسسها وطبيعتها ومفاتيحها أيضا . نفس الكلام نجده فى صورة أخرى فى كتاب قاسم

. تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ، إذن فإذا استطاعوا هم من الفتاح ولم نستفد نحن منه ؟

اقرأ مرة أخرى حكاية تاكيو أو ساهيرا لتفهم أن المسألة ليست مسألة المفتاح ، بل استعمال المفتاح وكيفية هذا الاستعمال .

إن هذا المفتاح يشبه عرق الذهب الذى يكتشفونه فى الجبال أو فى باطن الأرض . إنه ذهب . ما فى ذلك شك . ولكن العثور عليه شىء واستخراجه شىء آخر .

فإن عثور تاكيو أو ساهيرا على المفتاح واستعماله إياه اقتضى أشياء كثيرة .

أولا الإيمان باليابان ، وهو موجود عندنا وإن قد فى صورة أخرى هى الإيمان بالله . إن اليابانيين الوثنيين على مذهب « زن » يؤمنون بوطنهم ويؤمنون . فليس لديهم إله واحد خالق رحيم ورحمن ، وإنما لديهم مرشد يرشدهم إلى الخير هو بوذا ورجل هو عندهم خير أو موضع خير ، ولهذا فهم يعبدونه . وهذا الوطن المعبود ملك لأسرة واحدة هى أسرة الميكادو ورأسها الميكادو أو الإمبراطور يساعده فى ذلك أمازه . وهم الساموراى وهم ليسوا طبقة أشراف وإنما هم سواد الوطن اليابانى

قبل العصور الحديثة كان الساموراى فرسانا يحرسون القرى والمدن وقراصنة فى البحر يحرسون اليابان .

المهم أن الإيمان هناك إيمان أى أنه إيمان فعال يدفع الإنسان للعمل ويوقظ فى نفس الإنسان ضميرا رقيبا عليه وعلى تصرفاته . فهذا الرجل وملايين غيره من اليابانيين يعملون بهذا الإيمان . والإيمان عندهم ليس كما هو عند الكثيرين – قوة يلبسه الإنسان فى مناسبات وتخلعه فى مناسبات . إنه كيان الإنسان نفسه . بالضبط كما كان هذا الإيمان هو الطراز الأكبر للصحابة رضوان الله عليهم وانظر ماذا فعل إيمانهم .

بعد الإيمان الصحيح الشامل هناك روح العائلة

لقد رأيت أن العمل الذى قام به تاكيو أو ساهيرا قد يسير لأن رئيس البعثة كان معاونا معه . ورئيس البعثة أبلغ وزير التعليم ، ووزير التعليم أبلغ الميكادو . والميكادو تبرع بخمسة آلاف جنيه ذهبا .

بدون هذا التعاون بين أسرة واحدة ، هى شعب اليابان كله . ما كان من الممكن صناعة الثورة .

وهذا التعاون روح الأسرة كانا موجودين عندنا على نفس الصورة فى العصور القديمة . وحضارة مصر القديمة لم تكن من صنع فرعون . بل من صنع أسرة متكاملة هى الأسرة المصرية . ورئيسها – وكانوا يعبدونه إلها – هو الفرعون .

لقد قمت مرة محطيب جمعة بتنبيه القراءة كلهم بالنظر . لأن فرعون وصف بالنظر فى القرآن الكريم .

وقد فاته أن فرعون الذى غضب عليه الله سبحانه هو فرعون الذى لا نرضى عنه نحن . إنه فرعون العصور المتأخرة من الأسرة العشرين فصاعدا . والقراعنة ملئ الأسر لم يكونوا مصريين . لم يكونوا آباء للأسرة المصرية . وكانوا فعلا طغاة

أما القراعنة الأول ، الذين صنعوا حضارة مصر فكانوا آباء أسرة كبيرة هى الأمة المصرية . وكان المصرى يشعر أنه جزء وأباء أسرته . ولهذا وضعهم مكان الآلهة أو الأرباب . ومن المعروف أن كلمة رب لها معنى الرياسة الأبوية بدليل أننا نقول رب الأسرة وربة الأسرة ورب البيت .

ونحن المصريين لم نعرف إلى الآن كيف نقدر القراعنة . ونسى أن كل ما بين أيدينا من آثارهم الرائعة إنما هى القشور وما كان فيها . فإذا كانت هذه هى القشور فما بالك بالقصور !

ولابد لنا من عودة – فى دراسة خاصة – لروح الأسرة المصرية وكيف كانت أساسا من أسس قوة مصر وجلال تاريخها

ويجمل الآن أن نقول إننا لن نملك مفاتيح العصر حقا إلا إذا استعدنا روح الأسرة هذا . فقد رأيت أنه أساس من أسس نهضة دولة شرقية أخرى وهى اليابان .

هذان مفتاحان من مفاتيح العصر مذكتهما اليابان . ومن الممكن أن تمتلكها نحن فيها عندنا منذ الزمن الطويل ولكننا أهملناها فغابا عن أنظارنا . والمفاتيح كثيرة . ولكنى أكتفى منها باثنين أخيرين نستطيع أن نملكها إذا أردنا .

الأول هو أن تاكيو أو ساهيرا فى صميم غيرته أساس صناعة الغرب وهو الثوب أو الحرك لم يبن قط أنه يابانى وأن عليه هى التوبة على مذهب « زن » فقد وأباه يحبر العمل عبادة . ويحمل لمثل الثوب إلى اليابان ولم يفكر – كما يفكر ويحمل المكتوبون منا اليوم – فى إنشاء شركة استيراد موتورات ليحتى هو وتطفر اليابان .

إنه يعمل من قاعدة يابانية ويسعى لتحقيق أهداف يابانية بروح يابانية

هذا السعى للقبض على مفاتيح العصر لم يبدأ أن يابان بوذى لقد بدأ من قاعدة أصيلة وسار فى طريق أصيل . ولهذا فقد تأصلت فى بلاده العناصر التى أخذها من الغرب . وكل الصناعات الحديثة التى تصنع فى اليابان أصبحت اليوم يابانية وإن كانت أصولها غربية وأنت اليوم إذا رأيت أى تراكتور قلت إنه صناعة يابانية مع أنه قد يكون صناعة ألمانية . إن هذا الحد بلغ بأصيل اليابان لنفسه وصناعاته

ولأن أولئك الناس أصلاء وحريصون على أصالتهم . فهم يحرون فى عملهم على أسس الأخلاق اليابانية التى تسمى بالشرف اليابانى . وهو عندهم ميزان خلق كامل . من خالفه لا يستحق البقاء . وهو الذى يعاقب نفسه بنفسه . يقتل نفسه بالخنجر على طريقة الهاراكيرى .

ومن الغريب أن عندنا نحن أيضا ميزان خلق أصيل يسمى المروءة . وقد كان أجدادنا يحرون عليه . ومن أسف أنا نتناساه أو ننسى استعماله . والأخطاء التى نرتكبها فى حق أنفسنا أضعاف الأخطاء التى يرتكبها فى حقنا الآخرون .

والمفتاح الأخير الذى أتحدث عنه هنا يسمى الاستمرار

لأن عدم الاستمرار عيب رئيسى فى أعمال كل الأمم التى لا تسير فى طريق النهوض ولكنها تتسكع . ومعظمها مستظل تتسكع حتى تضيع

فنحن نبدأ بدايات طيبة ولكنا لا نستمر .

اتصال الأجيال وتعاقبها فى المسير فى طريق النجاح كأنها فريق يجرى فى سباق تتابع هو مفتاح أساسى من مفاتيح العصر .

والأجيال التى يتخلى كل منها على ما بنى الجيل السابق عليه مأساة من مآسى تاريخنا الحديث .

تصور لو أننا مررنا فى نهضتنا على الأسس التى وضعها جيل رفاعة رافع وعلى مبارك وحسن الطويل ومحمود فهمى .

أو إذا كان هؤلاء يمثلون بعض الشىء فانظر إلى القاعدة الثانية التى وضعها جيل ثورة سنة ١٩١٩ . طلعت حرب وعلى ابراهيم وعبد الحميد بدوى وسيد كرم وسيد درويش ويوسف وهبى وعبد حسن والعقاد وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب

لو واصلنا عمل هؤلاء فأين كنا نكون اليوم ؟

ولكن ما فات مات . وعفا الله عما سلف .

وهذا هو المفتاح وجدناه .

فأين الكنز الذى ملكنا – أرجو – مفاتيحه

أتحدث عنه فى الحديث القادم بإذن الله .